## H. تفكك الأمبراطورية العباسية.

## أمبراطورية سلاطين بغداد البويهيين

## وأمبراطورية خلفاء القاهرة الفاطميين من ٩٤٥ الى ١٠٥٥

# I. أمبراطورية البويهيين الايرانيين في بغداد، الامارات العربية الحمدانية في سورية وأمبراطورية الأتراك الأخشيديين في مصر

إن النصف الثاني من القرن العاشر، وعلى غرار ما رأينا غالباً خلال القرون وآلاف السنين الماضية، سيشهد من جديد، في الشرق المتوسطي القديم الذي صار عربياً ومسلماً، ولادة وتطور دولتين أو أمبراطوريتين إقليميتين وريثتين ومكملتين للدول أو الأمبراطوريات التي سبقت كلاً منهما منذ فجر التاريخ في واديي دجلة ـ الفرات والنيل. إن هاتين الدولتين أو الأمبراطوريتين هما: الأمبراطورية العراقية التي أسسها البويهيون الإيرانيون الذين سيسودون خلافة بغداد العباسية، والأمبراطورية المصرية أو خلافة فاطمي القاهرة وهم عرب وبربر من شمال أفريقيا سوف ينشئون في وادي النيل خلافة مستقلة متحررة من وصاية خليفة بغداد السياسية والدينية.

وفضلاً عن هاتين الدولتين الكبيرتين أو أمبراطوريتي العراق ومصر الإقليميتين فإن سورية وبلاد ما بين النهرين الشمالية، اللتين صارتا عربيتين ومسلمتين، ستشهدان على أرضهما، كما في الماضي، ولادة عدد كبير من الامارات والسلالات الصغيرة المستقلة ومن أهمها إمارات الحمدانيين العرب في حلب والموصل. وإن تلك السلالات السورية المتفرقة، برغم بقائها نظرياً خاضعة لسلطة الخلفاء الروحية، غير أنها جميعاً كانت تعمل باستقلالية تامة من الناحية السياسية.

«إن الأمبراطورية الموحدة الكبرى (أي الخلافة العباسية) التي كانت تمتد حتى أمس قريب من التركستان حتى مصر ومن كيليكيا حتى الهندوس سترى

نفسها بعد الآن مستبدلة بمجموعة كبيرة من الإمارات الإقليمية الصغيرة المعادي بعضها لبعض والتي تستنزف قواها في تلك المنازعات،مما سيجعلها في حالة عجز مزمن في وجه الأمبراطورية البيزنطية المجددة»[1].

وهكذا فإن الشكل الجغرافي ـ السياسي للشرق القديم، الوثني ثم المسيحي، سيظهر من جديد في الشرق العربي ـ المسلم في القرن العاشر. وكما كانت مصر الفراعنة والبطالسة والرومان والبيزنطيين تنازع بلاد ما بين نهري الميتانيين والحثيين والأشوريين والبابليين الجدد والفرس الأخمينيديين واليونان السلوقيين والبارتيين الأرزاسيديين والفرس الساسانيين على امتلاك الممر السوري ـ الفلسطيني هكذا ستقوم، بين مصر العربية ـ المسلمة أيام الأخشيديين والفاطميين وخلفائهم الأيوبيين والمماليك من جهة والعراق العربي ـ المسلم في عهد الإيرانيين البويهيين وخلفائهم الأتراك السلاجقة من جهة أخرى، نزاعات وصراعات على امتلاك مناطق الممر السوري ـ الفلسطيني وبأشد مما كانت عليه، وذلك خلال العصور المقبلة.

## ١ ـ سلاطين بني بويه رؤساء الدولة العباسية.

## الخلفاء العباسيون ملوك ـ شرف

وبدءاً من العام ٩٤٥ فإن النفوذ الإيراني، الذي ساد منذ وصول العباسيين الى الحكم العام ٧٥٠، أمبراطورية بغداد العربية ـ الشرقية، سيتحول بعد الآن الى تفوق سياسي حقيقي، حيث أن سلالة ملكية إيرانية حقيقية وشيعية وضعت يدها على السلطة العليا وأصبحت تمارسها، هي سلالة بني بويه الذين كانوا قد فرضوا سيطرتهم على جميع بلاد فارس الغربية.

### أ ـ بنو بويه حتى دخولهم بغداد

رأينا في إيران تعاقب سلالات الطاهريين الإيرانية (٨٢٢ ـ ٨٧٣) والسفاريين (٨٧٣ ـ ٩٠٣) والسامانيين (٩٠٣ ـ ١٠٠٠) الذين بنوا ووطدوا استقلال المقاطعات الشرقية حيال خلافة بغداد. وتحت حكم تلك السلالات القومية فإن شعوب شرق إيران طورت أصالتها اللغوية والاجتماعية وخاصيتها الإقليمية وشعورها القومي.

في القرن العاشر تشجعت مقاطعات إيران الغربية أو فارس القديمة

1 Grousset, *L'Empire du Levant*, p. 110.

بعدما رأت مثل إيران الشرقية، فقامت فيها حركات ظاهرها علوي لكنها في حقيقتها ناشئة بفعل يقظة الشعور القومي الإيراني في تلك البلاد. وفي العام ٩٣٢ قام قائد مرتزقة إيراني يدعى بويها مؤسس السلالة المعروفة بالبويهية، بحركة عصيان ضد عاهله الحاكم على طبرستان جنوب بحر قزوين. وبعدها بقليل احتل أصفهان وطرد منها حامية خليفة بغداد العسكرية. وقام بويه، يساعده أولاده الثلاثة باحتلال شيراز حيث أقام مقره (٩٣٤). وفي العام ٩٣٥ كان بويه وأولاده يحكمون كل فارس الغربية وحتى خوذستان (سوزيان، عيلام القديمة) تلك الأرض العراقية ـ الإيرانية القديمة التي تمكنوا من انتزاعها من البريديين أسياد البصرة.

**ب ـ البويهي أحمد أمير الأمراء في بغداد (٩٤٥)**

إن الخليفة المستكفي (٩٤٤ ـ ٩٤٦)، الذي أغاظته التجاوزات التي إرتكبها أتراك «الأمير الأعلى» في بغداد، وضع نفسه تحت حماية أحمد بن بويه الذي حظي بشهرة إثر إحتلاله مقاطعة كرمان الإيرانية وإعلانها إمارة مستقلة (٩٣٥). إن البويهي أحمد، وقد إستجاب إلى طلب الخليفة، فإنه هزم الوزير شيرزاد ودخل بغداد (٩٤٥) فمنح إلى جانب وظيفة أمير الأمراء اللقب الفخري «معز الدولة». وقد لحق به شقيقاه الآخران، اللذان كانا يحكمان شيراز ومادي، إلى بغداد حيث نالا حصتهما من الألقاب والسلطات التي كانت بتصرف أخيهما.

**ج ـ البويهي أحمد، سلطان وراثي وسيد الدولة (٩٤٥).**

وأحل أحمد، الذي أصبح ملكاً غير متوج، سلطته محل الخليفة وإتخذ لقب سلطان، الذي يعني بالعربية السلطة والقوة، مما أعطاه صلاحيات رئيس السلطة التنفيذية الأعلى (٩٤٥). «وقد نودي باسم السلطان أحمد خلال خطبة يوم الجمعة على المنابر وحفر رسمه على العملات قبل إسم الخليفة الذي أصبح مجرد دمية في يد الممسك الحقيقي بالسلطة»[2].

**د ـ الخلفاء العباسيون ملوك ـ شرف**

إن الخليفة المستكفي، وبعدما طلب من بني بويه الإيرانيين مساعدته، قد يكون تآمر عليهم فإنتقموا منه بأن سملوا عينيه ثم قتلوه (٩٤٦). «وأما

2 Huart, *op. cit.*, I, p. 315.

خلفاؤه المعطي (٩٤٦ ـ ٩٧٤) وأرطاي (٩٧٤ ـ ٩٩١) والقادر (٩٩١ ـ ١٠٠٣) فلم يعودوا سوى موظفين عند بني بويه: فاكتفوا بحق شرفي يتمثل بسك العملات التي كانت ما يزال يُضرب عليها شعار الخلفاء وأسماؤهم فضلاً عن حق الدعاء للخليفة في المساجد خلال صلاة يوم الجمعة، تلك المساجد التي كانوا ما يزالون يدخلونها كملوك. وأما عُمُد قصرهم الذين كانوا يقيمون بعض الوقت في بغداد وبعضه الآخر في شيراز فلم يكن بوسعهم الاحتفاظ بسلطتهم إلا عن طريق معارك متصلة كانوا يخوضونها ضد الجبليين الإيرانيين المستعدين دائماً للعصيان»[3].

**هـ ـ الخلفاء قادة روحيون**

وقد إستغرب البعض ذلك الوضع المتناقض الذي كانت فيه دولة تيوقراطية مثل أمبراطورية بغداد العباسية البويهية حيث كانت السلطتان السياسية والدينية فيها تمارسان من قبل رئيسين مختلفين، فضلاً عن أن كلاً منهما يتبع عقيدة دينية مختلفة عن عقيدة الآخر: الشيعية (السلطان) والسنية (الخليفة).

وفي الواقع إضافة إلى التسامح الديني، الذي كما نعلم، ميز بإستمرار السادة الإيرانيين فلا ينبغي أن ننسى أن الخليفة العباسي المتمتع، بحكم كونه من سلالة عم النبيﷺ، بإحترام ديني كبير في كل الشرق الإسلامي هو ممثل العقيدة السنية التي هي عقيدة السواد الأعظم من المسلمين في الجزء الغربي من الأمبراطورية (سورية، مصر). إن الشيعية وهي عقيدة المناطق الشرقية لها أئمتها ويقوم على رأسهم الأمير البويهي الرئيس الفعلي للسلطة العليا في الأمبراطورية.

**و ـ محاولة إعادة بناء الأمبراطورية الفارسية القديمة**

إن منصب أمير الأمراء المكلل بهالة لقب سلطان والسلطات المتصلة به والتي تجمع في يد حامله كامل سلطات الخلافة سيكون وراثياً في أسرة بويه الإيرانية والتي ستحتفظ به طيلةماية وعشر سنوات (٩٤٥ ـ ١٠٥٥). وكما أقام الفرس الأخمينيديون ثم البارتيون الأرزاسيديون والفرس الساسانيون مركز أمبراطوريتهم الإيرانية ـ العراقية في سهل وادي النهرين التاريخي: في سوزا

3 Brockelmann, *op. cit.*, p. 137.

وسلوقيا على دجلة ثم في المدائن فإن تابعيهم البويهيين سيقيمون مقرهم في بغداد قرب المدائن العاصمة الفارسية ـ الساسانية القديمة. وفي فارس فإن مدينة شيراز ستلعب دور مدينة برسيبوليس القديمة.

### ز ـ الملوك البويهيون وحكمهم (٩٤٥ ـ ١٠٥٥)

إن سلالة بني بويه ستحكم من العام ٩٤٥ وحتى الفتح التركي السلجوقي العام ١٠٥٥. وطوال تلك المرحلة التي دامت أكثر من قرن فإن ورثة أحمد مؤسس السلالة وورثة إخوته سيتنازعون السيادة على العراق وإيران.

«إن البويهيين الأول كانت لهم حيوية قُطّاع الطرق الأسطوريين الكبار.. فكانت تستحوذ عليهم رغبة جامحة في حب المال. ولا ريب بأنه كان عليهم أن يدفعوا المال لعصاباتهم الجائعة دوماً ولكنهم كانوا أيضاً يحبون التلذذ بالحياة، بهوس البذخ وكانوا يطبقون ذلك على كل شيء حتى على اقتناء الكتب النادرة والعديدة التي لا يقرأونها بالطبع. وكانوا يبدون وكأنهم وجدوا في أنفسهم طموحات رجال دولة مع احتفاظهم بردود فعل قُطاع الطرق الافظاظ...

إن حكم البويهيين كان بالإجمال مفيداً للأمبراطورية التي لم تكن، ومنذ زمن بعيد، على هذا الإتساع وهذا الإستقرار... وقد حمل بنو بويه لقباً جديداً هو لقب السلطان وهي كلمة عربية قديمة ترمز إلى القوة. إن دخولهم بغداد سجل مرحلة جديدة في تقهقر السلالة العباسية: فالخليفة لم يعد يحكم وأما السيد الوحيد والحقيقي فهو السلطان البويهي. وبما أنه بفضله كانت الخلافة العباسية ما تزال تظهر كدولة كبرى متحضرة فقد كان هناك إستعداد للإقرار بأن هذا البويهي إنما شرّف الخليفة الطائي عندما تزوج من إبنته وبأن هذا البويهي له الحق حقاً بإحياء اللقب الساساني «شاهنشاه» (١٠٣٧) أي ملك الملوك كي يحمله. وقد كان الطبل يقرع خمس مرات يومياً أمام قصر بني بويه إيذاناً بالصلوات الخمس اليومية، وقد أخذ سلاطين المماليك هذا التقليد عن بني بويه...

كان البويهي يتمتع، وبكل بساطة، بلامبالاة دينية تامة. وبما أنه شيعي فقد أعاد بناء كربلاء والنجف بشكل رائع، وبصفته رئيساً فعلياً للدولة السنية فهو يسهر على دفع رواتب الوعاظ والمؤذنين بشكل منتظم ولكنه سمح لوزيره نصر، الذي هو مسيحي، بإعادة بناء الكنائس والأديرة وكان يرحب

بالفلاسفة. وقد كانت مع ذلك هناك إضطرابات دينية ومنازعات بين السنة والشيعة في بغداد حيث كان بمقدور طبقة رجال الدين أن تثير دوماً مشاعر الشعب.

وإذا كنا مصرين على الإعتقاد بأن كل الأحداث السياسية هي متطابقة مع منطق دستوري فلا بد إذن أن نعدل عن فهم كيف استطاع الخليفة السني أن يعهد بكل سلطته إلى سلطان شيعي في دولة نجد فيها تشابكا تاما بين السلطتين الروحية والزمنية. لكن لا يسعنا إلا أن نكون على يقين بأن الخليفة إحتفظ بكل السلطة الروحية. فلا مجال بعد ذلك للإلتباس.

وهناك وجهة نظر أخرى لا تنظر إلى الأمور إلا في إطارها العام وقد تعتبر الشيعية وكأنها على وشك السيادة على كل المجموعة الإسلامية في الشرق. فالبويهيون شيعة والفاطميون والقرامطة أيضاً شيعة. لكن كل مجموعة شيعية على طريقتها الخاصة. فالبويهيون كانوا شيعة ينتسبون إلى الإمام الإثني عشر والفاطميون شيعة إسماعيليون ينتسبون إلى الإمام السابع والقرامطة شيعة ذوو إستقلالية كبيرة حيال الفاطميين...

إن كل أولئك المغامرين من رؤساء السلالات الموقتة كانوا من الجبليين الفظين والخشنين ولكنهم كانوا من الإيرانيين. وينبغي ألا ننسى ذلك كي نتمكن من إستيعاب كل مواقفهم.فهي مختلفة عن مواقف الأتراك الذين كان نفوذهم يزداد بإستمرار على الحياة الإسلامية خلال القرون المقبلة»[4].

## ٢ ـ أمراء بني حمدان العرب في سورية الشمالية وعلاقاتهم مع بغداد ومصر

### أ ـ العرب الحمدانيون

كان الحمدانيون يشكلون سلالة صغيرة عربية خالصة تحكم شمال ما بين النهرين (الموصل) وسورية الشمالية (حلب).

«إن الدولة الحمدانية ككل إمتدت في أزهى أيامها إلى بلاد ما بين النهرين بأكملها وسورية (حلب ودمشق) وشمال وادي الفرات وإلى الحدود غير الواضحة التي كانت تفصل بين الأمبراطورية البيزنطية وأرض الإسلام.

4 Gaudefroy-Demombynes, *op. cit.*, p. 298-302.

وكانت سلطتها تشع على البدو المتنقلين بين بلاد ما بين النهرين والعراق وسورية. إنها مملكة مكونة من أجزاء متناثرة مجموعة على الطريقة البدوية كيفما إتفق. وكانت تلك المملكة تقوم، ونكرر، عند ملتقى ثلاث أمبراطوريات: خلافة بغداد... والقوة المصرية والأمبراطورية البيزنطية... وكانت تلك الأمبراطوريات الثلاث غير مؤهلة للتفاهم أو دمج جهودها ضد عدوها الضعيف (الحمداني). فنجح هذا العدو إذن بأن يعيش بينها تابعاً للعباسيين وعلى وفاق مع الفاطميين ومتفاوضاً مع البيزنطيين تبعاً لسياسة البدوي الماكرة والبسيطة معاً.

ومنذ الفتح الإسلامي وقبله كذلك، كانت منطقة حلب والموصل قد شهدت العديد من الغزوات كما كانت أيضاً بلد حياة فكرية. وعند وصول المسلمين كانت قُدس مركزاً كبيراً لليعاقبة... وإن ذلك العالم الصغير من الحضر القدامى غدا الآن ممتزجاً بالعرب البدو الذين إنتشروا منذ الفتح على جميع أطراف الصحراء السورية... وقد أتاحت الفوضى التي وقعت فيها الخلافة خلال القرن العاشر المجال أمامهم للتعاطي في حياتها السياسية»[5].

### ب ـ العرب الحمدانيون في الموصل (٩٢٩ ـ ٩٩١)

حمدان.ـ كان حمدان، وهو أمير قبيلة بني تغلب العربية، يحتل منذ العام ٨٩٠ قلعة ماردين في شمال ما بين النهرين. وفي العام ٩٠٥ عين الخليفة المقتدر أخاه هيجا حاكماً على الموصل. وبعد العام ٩٢٩ مدّ حسن إبن هيجا سلطته على بلاد ما بين النهرين وشمال سورية. وفي العام ٩٤١ أفاد حسن هذا، كما رأينا، من مصاعب الخليفة المتقي فأكرهه على منحه منصب أمير الأمراء مع اللقب الفخري «ناصر الدولة». وقام مع أخيه علي، الذي نال في الوقت نفسه لقب سيف الدولة، بإعادة الخليفة إلى عاصمته.

حمدانيو الموصل تابعون للبويهيين. ـ كان الحمدانيون، الذين اضطروا للتخلي عن محاربة بني بويه سادة بغداد منذ العام ٩٤٥، تابعين لهؤلاء البويهيين. وكانت روابط تابعيتهم تقضي بإعترافهم الرسمي بالبويهيين ودفع جزية لهم. وقد نجح ناصر الدولة، الذي كان يقيم في الموصل ومن خلال نشاط دائب دام حقباً عدة، في بسط إمارته على كل بلاد ما بين النهرين الشمالية التي سرعان ما سيفقدها خلفاؤه العام ٩٩١.

5 Gaudefroy-Demombynes, *op. cit.*, p. 313, 314.

### ج ـ العرب الحمدانيون في حلب (٩٤٤ ـ ١٠٠٣)

سيف الدولة (٩٤٤ ـ ٩٦٧) هو أخو ناصر وهو الذي إنتزع سورية الشمالية من أخشيديي مصر (٩٤٤) وكان يقيم في حلب كأحد ألمع أمرائها. وعقد إتفاقية مع مصر مكنته من بسط سيطرته على سورية الشمالية حتى حمص. وبعد وصول الفاطميين إلى سدة الحكم في القاهرة (٩٦٩) أعلن نفسه تابعاً لهم وإعتنق العقيدة الشيعية لكنه حكم منطقة نفوذه كأمير مستقل.

وقد أتاح الصلح المعقود مع مصر لسيف الدولة تكريس حياته للنضال ضد بيزنطية. إن هذه الصراعات، التي تعاقبت فيها الإنتصارات والهزائم، كانت عبارة عن غزوات ومعارك حدودية. ففي العام ٩٦٢ وقعت حلب نفسها في أيدي البيزنطيين. وقد استعادها الحمدانيون واحتفظوا بها بتحالفهم مع البيزنطيين ضد فاطميي مصر. وفي العام ١٠٠٢ نجح الفاطميون بالسيادة على البلاد مزيلين سيادة الحمدانيين فيها.

سيف الدولة وبلاطه في حلب. ـ كان سيف الدولة محارباً وشاعراً وصديقاً للفن والعلم وقد إرتفع خلال الإضطراب الشديد الذي عانت منه الخلافة العباسية في القرن العاشر إلى مرتبة بطل الإسلام في وجه الأمبراطور البيزنطي. «وكان بطلاً ملحمياً في وقت كان فيه سائر الأمراء المسلمين لا يهتمون بالجهاد المقدس. فأمضى حياته في معارك بطولية لإبعاد شبح الإحتلال البيزنطي عن شمال سورية بعدما تفاقم يوماً بعد يوم. وكان بين معركة ومعركة ينظم القصائد حيث كانت له قصيدة رقيقة يصف فيها قوس القزح. وقد حذا حذوه إبن عمه ومساعده أبو فراس الحمداني الذي جمع مجد الشعر ومجد السيف في آن»[6].

وأما بلاط سيف الدولة في حلب فأصبح ملتقى الشعراء والكتّاب والمفكرين الأكثر شهرة في ذلك العصر. وفي العام ٩٤٨ وصل إلى بلاط هذا الأمير الكبير أحد أكبر أعلام الشعر العربي في عصره: المتنبي (نحو ٩٢٥ ـ ٩٧٦). «فراح طوال تسع سنوات ينشد مآثر بطل الجهاد المقدس في حلب. ثم وبعد خلاف تركه ليجرب حظه أولاً في بلاط ملك مصر التركي

6 Grousset, *Les civilisations de l'Orient*, I, p. 190.

الأخشيدي كافور ومن ثم في بغداد وأخيراً لدى عضد الدولة البويهي في فارس. . . لكن العلم أيضاً كان له رصيده في ديوان سيف الدولة حيث أن الفيلسوف الأرسطوطاليسي الكبير الفارابي، وهو تركي المولد وأنهى دراساته في بغداد، إلتجأ إلى ديوان سيف الدولة وكتب فيه العديد من دراساته الفلسفية التأمليّة»[٧].

### ٣ ـ مصر الأخشيدية قوة إسلامية كبيرة

ما أن إستعادت مصر سيادتها الفعلية تحت إدارة الأتراك الأخشيديين حتى بسطت نفوذها حتى دمشق (٩٣٨) وما إنفكت تطور قوتها. وإن وصول بني بويه الى السلطة في بغداد (٩٤٥) ترافق مع وفاة الأخشيد محمد (٩٤٦) مؤسس السلالة الأخشيدية ومع سيادة مصر. تبوأ الحكم كافور، وهو خصي مولود في الحبشة وكان مدرساً لولي العهد الأخشيدي القاصر بصفة وصي.

وأراد سيف الدولة الحمداني الإفادة من تلك الأحداث ليحاول غزو مصر لكن كافوراً ردّه ولاحقه بجيشه حتى عاصمة سورية الشمالية. كما سحق كافور تمرداً ضد حكمه في مصر العليا (٩٤٧).

وكانت علاقات الأخشيديين مع الإيرانيين البويهيين في العراق علاقات ودية «وعقد البلاط المصري علاقات ودية مع الأمير البويهي الذي أصبح عرشه موطداً بقوة في بغداد. وقد أرسل أنودجور (الأخشيدي القاصر) العام ٩٤٩ وفداً إلى الأمير البويهي، لا إلى الخليفة العباسي، يطالبه نقل السلطة إلى أخيه من بعده وقد لبي طلبه»[٨].

وأما من جهة الغرب فقد كان الأخشيديون منشغلين بإستمرار بالدفاع عن حدودهم ضد هجمات فاطميي أفريقيا الشمالية. فهؤلاء الفاطميون، ومنذ إعتلائهم سدة السلطة في أفريقيا العام ٩١٠، لم يكفوا عن توجيه مطامعهم نحو الشرق الذي خرجت منه سلالتهم. ومن العام ٩٣٧ إلى العام ٩٦٨ نجح الحكام الأخشيديون بيسر في إبعاد الفاطميين عن الحدود المصرية. لقد كانت مصر الأخشيدية يومها «أقوى قوة عسكرية في الإسلام كله».

7 Brockelmann, *op. cit.*, p. 136.
8 Wiet, *op. cit.*, p. 140.

# II. أمبراطورية خلفاء القاهرة الفاطميين توسعها نحو سورية وعلاقاتها مع بيزنطية وبغداد من العام ٩٦٩ إلى العام ١٠٥٥

## ١ ـ تأسيس الأمبراطورية والخلافة الفاطميتين في القاهرة (٩٦٩ ـ ٩٧٠)

### أ ـ الفاطميون يحتلون مصر (٩٦٩)

لم ينفك الفاطميون، منذ العام ٩١٠ وهو تاريخ إرتقاء سلالتهم إلى الحكم في شمال أفريقيا، عن توجيه مطامعهم نحو الشرق وهو المكان الذي جاؤوا منه. وفي العام ٩١٤ نجح جيش فاطمي في إحتلال الإسكندرية لكنه ما لبث أن طرد منها. كما أن حملة فاطمية ثانية العام ٩٢١ لم تكن أوفر حظاً من الأولى. ومن العام ٩٣٧ إلى العام ٩٦٨ فإن الحكام الأخشيديين لم يلقوا صعوبة في إبعاد الفاطميين عن حدود مصر. لكن وفي العام ٩٦٨ أدى نشوء أزمة سلالية ووفاة كافور إلى إضعاف مصر ونجاح الفاطميين في تحقيق حلمهم في الشرق.

وفي العام ٩٦٩ قام جيش فاطمي مؤلف من مرتزقة بربر وإغريق وأرمن وأكراد وأتراك وزنوج، وتحت القيادة العليا للقائد المشهور جوهر وهو رقيق يوناني سابق، بإجتياح دلتا النيل وحقق نصراً حاسماً على أنصار الأخشيديين مما فتح أمام جيش جوهر أبواب الفسطاط (القاهرة المقبلة) (٩٦٩).

### ب ـ إرتقاء سلالة الفاطميين عرش مصر (٩٦٩)

ومنذ بلوغه الفسطاط، حيث أقام معسكره، ألقى جوهر خطبة بإسم الفاطميين. وقد كرس هذا العمل الإحتفالي رسمياً سقوط الأخشيديين وإرتقاء سلالة الفاطميين الجديدة حكم مصر (٩٦٩). وكان وادي النيل يومها يعاني من أزمة مجاعة وقد تفشى فيه الطاعون وإختل حبل الأمن فإستسلم بلا مقاومة إلى أسياده الغرباء الجدد. فإعتنق وادي النيل عقيدة الفاطميين الشيعية وعاش تحت سيادتهم طوال مايتي عام (٩٦٩ ـ ١١٧١).

### ج ـ مصر الفاطمية تحتل سورية (٩٧٠)

وعلى خطى الملوك والرؤساء الأقوياء الذين سادوا مصر منذ أربعة آلاف سنة تقريباً، راح جوهر يستعد لتوه لمهمة إكمال رسالته باخضاع سورية. وكان هذا البلد في أيدي حاكم أخشيدي هزم قرب الرملة في فلسطين. وسقطت دمشق العام ٩٧٠. «لئن لم تكن السيادة الفاطمية على سورية يوماً أكيدة وكاملة غير أنها كانت منطقية الى حد كبير مما جعلها تدوم دوام السلالة نفسها»[9].

ولم يتقدم جوهر حتى سورية الشمالية التي كانت في ايدي الحمداني سيف الدولة. لكن قرامطة البحرين، الذين ظلوا حتى ذلك الحين حلفاء للفاطميين، والذين كان حاكم دمشق الأخشيدي يدفع لهم الجزية، أعلنوا رسمياً إنفصالهم عن الفاطميين ووالوا حكم بويهي بغداد. وبعدما تزودوا بالأسلحة والمال من السلطان البويهي دخل القرامطة دمشق وأعادوا السلطة الدينية فيها الى الخليفة العباسي. وفي كل من الأعوام ٩٧١ و٩٧٢ و٩٧٣ دخلوا مصر على دفعات متكررة لكنهم طردوا منها في كل مرة.

### د ـ القاهرة عاصمة امبراطورية الخلفاء الفاطميين (٩٧٣)

وبعد ثلاث سنوات من اقامة جوهر في الفسطاط فإن ذلك المعسكر القديم الصغير تحول الى مدينة اطلق عليها اسم القاهرة او المدينة الظافرة (٩٧٣). وفي ذلك التاريخ كان قد تم بناء مسجد الأزهر الشهير وقصر للسيد الجديد. لذا غادر الخليفة الفاطمي المعز (٩٥٣ ـ ٩٧٥) العام ٩٧٢ عاصمته شمال الافريقية واتجه نحو عاصمته الجديدة مصطحباً معه بلاطه وحرمه

9 Gaudefroy-Demombynes, *op. cit.*, p. 437.

وكنـوزه الضخمة. وإستقبـل في القاهـرة العام (٩٧٣) واستقـر فيها وجعـل من هذه المدينة الجديدة مقره ونقل اليها مقر الخلافة الفاطميـة التي كانت حتى ذلـك الوقت مركزة في افريقيا.

إن الخلفاء الفاطميين، بنقلهم عاصمة امبراطوريتهم في افريقيـا الشماليـة الى الشـرق، فقدوا منـذ رحيلهم المنطقـة الغربيـة منها. فخـلال اقـل من عشـر سنوات عاد المغرب مستقلاً تحت حكم سـلالة البـربر الـزيريـديين او الـزيريـين وقد كانوا تابعين للفاطميين سابقاً، وكان أوكل اليهم الفاطميون لدى رحيلهم ادارة منطقة نفوذهم الإفريقية.

### هـ ـ دور خلافة مصر الفاطمية ومصيرها

كان من نتائج تركيز الخلافة الفاطمية في القاهـرة نقل مـركز قـوة الاسـلام العـربي السياسيـة من وادي الفرات الى وادي النيـل. وحلت القاهـرة، المـدينـة العـربية الاسـلامية، محـل بغـداد التي صـارت ايـرانيـة ومن ثم تـركيـة. فلقـد اصبحت الخلافة الفاطمية في مصر، وهي تشكيل سيـاسي وديني مـستقل، بـطلة الشـرق والاسلام العـربيين عـوضاً عن خـلافة العـراق العبـاسيـة التي اصبحت مجزأة وضعيفة فضلاً عن أنها محكومة بسلطة سياسية غير عربية.

«إن الخلافة الفاطمية هي حـدث هام في تـاريخ الشـرق المسلم، غير انها لم تحقق المصـير العظيم الـذي تـوخـاه البعض لهـا... فـاحتـلال مصـر وبعض سـوريـة جعـلا من الفـاطميـين فجـأة ممثـلي الإسـلام في وجـه امبـراطـوريـة القسطنطينيـة المسيحية والتي كـان نشاطهـا المتجدد يهـدد الحدود غـير الواضحـة لـدى الخلافـة العباسيـة... كما أن إعـلان المدينتـين المقدستـين (مكة والمـدينة) مبايعتهما للمعز كان دليـلاً خطيـراً على قـوة سيد مصـر الجديـد... هكذا، وفي وقت من الأوقـات، بدت الفـاطمية وكـأنها تحتـل المقـام الأول في حيـاة الشـرق الأدنى...

غـير أن السـلالـة الفـاطميـة ظهـر فيهـا مـا يخـالف المنـطق بـين أصلهـا وتـطورها. إن المهـدي عبيدالله كـان قد أعلن عنـه على أنـه الكائن المـرسل من العنـاية الالهيـة كي يبني على أنقـاض العالم الفـاسد مملكـة عدالـة وسعادة تمهـد لنهـاية الأزمنـة. ومع ذلـك فإن حكمـه وحكم خلفائـه لم يكن يختلف عن حكم الخلفـاء العباسيـين إلا ببعض المظاهـر الخـارجيـة... وبـالنتيجـة فـإن الخليفـة الفاطمي يظهر فقط كمنافس للخليفة العباسي. ويبـدو أن الشعوب وعت هـذه

الحقيقة. وإن النصر الزمني الذي حققته السلالة الفاطمية يشير الى زوال نفوذها الروحي. فالدعوة الاسماعيلية فقدت مبرر وجودها وزخمها. ومن الملاحظ ان الشيعة بقيت على الهامش في حياة مصر وانها تقريباً قد زالت منها بزوال الفاطميين»[10].

## ٢ ـ مصر تحت حكم الخليفتين الفاطميين الأولين (٩٧٠ ـ ٩٩٦)

### أ ـ نظام وإزدهار إقتصادي

إن مصر، وتحت حكم الخليفتين الفاطميين: المعز (٩٧٠ ـ ٩٧٥) وخلفه العزيز (٩٧٦ ـ ٩٩٦) والتي عانت من الحروب الأخيرة عاد اليها ازدهارها السابق. فالفاطميون، كما البطالسة، أعطوا البلاد أسس إدارة مختبرة. وقد ضمنوا للمصريين، تدعمهم حماسة قواتهم البربرية، الأمن والعمل اللازم للعيش.

«وكانت الضريبة تدخل الى خزينة الدولة من غير ان يضطر الخليفة الى الإيعاز لجنوده بالتدخل. لكن جنوده هؤلاء كانوا ضروريين له للدفاع عن الأمبراطورية ضد أمراء بني بويه الذين يتحكمون بالخليفة العباسي وضد صغار امراء حلب الحمدانيين وضد البدو وبخاصة ضد البيزنطيين الذين كانوا في وضع قوي ولديهم اسطول. وكانت سورية سوقاً ضرورية للدولة الفاطمية. فمرافئها الصغيرة هي رؤوس خطوط نقل تجارية. لكن مواردها الاقتصادية ضعيفة والضريبة يصعب تحصيلها منها. ولم يكن بوسع الخليفة ان يجند قوات له في سورية. فسلائل السوريين من رجال الحجاج لم يعد لهم من أثر.

غير أن الخليفة سيحتاج مع ذلك الى جيش وهو لا يملك حالياً سوى حرس أمين وقوي بلا ريب، ولكنه قليل العدد، وهم برابرته الكتامة الذين ربطوا مصيرهم بمصيره. لقد كان تجنيد عناصر من البدو والمصريين ضئيلاً جداً... وشيئاً فشيئاً إستسلم الكتامة والزيناتة للسُنّة العامة: فالرفاه وحياة الرخاء في مصر أديا بهم الى التراخي ونزعا عنهم صفاتهم العسكرية ولكن ذلك لم يمنع حبهم للتآمر والتحريض. لذا فإن الخليفة الفاطمي إضطر للجوء الى الوسيلة التي يلجأ اليها عادة الملوك المعزولون في امبراطورياتهم أي الى

10 Gaudefroy-Demombynes, *op. cit.*, p. 437, 438.

الجنود المرتزقة الذين كانوا بالنسبة الى عالم الإسلام في تلك الأيام الأتراك والزنوج»[11].

### ب ـ الفاطميون والوضع السوري المعقد

منذ وصول الفاطميين الى عرش مصر نشب الصراع الديني بين خلفاء القاهرة الشيعة وخلفاء بغداد السنة. وفي الواقع كان ذلك هو الصراع الخالد بين بلدي النيل والفرات للهيمنة على العالم الشرقي وبخاصة للسيطرة على مناطق الممر السوري-الفلسطيني. إن معطيات الشرق الإسلامي هذه تذكرنا بشكل ملفت للنظر بمعطيات العالم الهللينيستي حيث كان أغارقة الاسكندرية اللاجيديون وأغارقة أنطاكيا السلوقيون، وكلاهما خلف الاسكندر الأكبر، على نزاع مستمر حول السيادة على جنوب سورية.

«كانت سورية في أيام حكم الدولة الفاطمية تسودها فوضى بالغة التعقيد حيث كان مغامرون يبرزون من كل جانب، والمدن تنتقل من يد سيد الى يد سيد آخر بسرعة والشعوب تفرض عليها الجزيات وتتعرض للإرهاب من غير أن تجرؤ على إظهار تعاطفها مع هذا الجانب او ذاك. وأما أراضيها فمجزأة الى سلسلة إمارات صغيرة وكل سيد منشغل ببناء القلاع الحصينة التي قد يلوذ اليها كملجأ منيع. إن خطر مثل هذه التجزئة يكمن في أن كل أمير، أضعف من أن يقيم سيادة تضمن غدها، يعتقد أنه مضطر، لإخفاء ضعفه، للقيام بهجمات مستمرة ضد جاره. حتى إذا تعرض هو للهجوم، فإنه يبحث عن جميع التحالفات الممكنة وأحياناً مع عدو الأمس. إنها الفوضى: فصغار الأمراء يلعبون على جميع الحبال تبعاً لمصلحتهم من العباسيين الى الفاطميين وقد يخونون الإسلام بالقيام بتحالفات عابرة مع البيزنطيين. وهو تصرف سنجده أيضاً خلال الاحتلال الفرنكي...

لم يكن هناك تكافؤ بين مطامع الفاطميين وإمكاناتهم، ولكن سياستهم الخارجية لم تكن كلها هوجاء. فهم فهموا بالفطرة ان مصر المستقلة يجب ان تكون حدودها الشرقية بعيداً داخل سورية: إنه مفهوم عميق الجذور في العصور الأكثر قدماً ويقترن في التاريخ الإسلامي بأسماء كبرى مثل إبن طولون وصلاح الدين وسلاطين المماليك. وهذا المفهوم لا يمكن اعتباره كمطمح سطحي وطائش. لكن ما قد نأخذه على الفاطميين فهو أنهم مزجوا بهذا الميل

11 Gaudefroy-Demombynes, *op. cit.*, p. 439, 440.

دعوة عقائدية منعتهم من التوقف عند حد، في وقت لم يعرفوا كيف يجندون الجيش الضروري القادر على تحقيق مطامحهم.

وعندما بدا الخطر القرامطي في العام ٩٧٣ على أنه قد أزيح فإن الحكم الفاطمي أعاد احتلال دمشق وأقام والياً فيها. وخلال كل السنة ٩٧٤ كانت ممارسات الجنود الفاطميين البربر في دمشق تثير ضدهم نفور الأهالي، وهذا العامل كان له تأثير بيّن في زعزعة القوة الفاطمية في سورية. فكانوا ينهبون بكل وقاحة ويوقفون المسافرين المسالمين لسلبهم، ويسرقون من غير حياء كل ما تقع عليه أيديهم في القرى المجاورة لدمشق ويفرضون الجزيات على القوافل... وكان أهل دمشق يعيبون على الأفارقة قلة علمهم وخشونة تصرفاتهم ومعتقداتهم الشيعية»[١٢].

### ج ـ إضطرابات داخلية وغارات بيزنطية في سورية (٩٧٤ ـ ٩٧٥)

وفي العام ٩٧٤ قام ضابط تركي يدعى أفتكين، والعامل لحساب سلطان بغداد البويهي، بالاستيلاء على دمشق وجنوب سورية وأمر بالدعاء للخليفة العباسي خلال خطبة يوم الجمعة. وخشية من ردة فعل فاطمية فإن افتكين طمأن خليفة القاهرة بأنه موالٍ له.

وفي العام ٩٧٥ اقتحم الأمبراطور البيزنطي جان تيمسكيس سورية الداخلية واستولى على حمص وبعلبك وحظي بخضوع افتكين في دمشق وخضوع مدينة صيدا واستولى على بيروت ولكنه عجز عن الاستيلاء على طرابلس. وإثر هذه الغارة التي لم يدم نصرها طويلاً أقام اليونان شمال طرابلس في المنطقة الساحلية الممتدة حتى العاصي ولبثوا فيها حتى وصول الصليبيين العام (١١٠١) الذين طردوهم منها.

### د ـ تساهل المعز

توفي الخليفة المعز العام ٩٧٥ بعد سنتين على دخوله القاهرة. «كان المعز ذكياً ومثقفاً وشاعراً نوعاً ما، وكان يمضي في تسامحه الى حد السماح لساويروس اسقف اشمونين بالنقاش مع القضاة وسواهم من كبار اصحاب المناصب المسلمين حول مسائل دينية. وقد سمح بإعادة بناء الكنائس القبطية»[١٣].

12 Wiet, *op. cit.*, p. 189, 190.
13 Huart, *op. cit.*, I, p. 344.

### هـ ـ ذروة القوة الفاطمية

العزيز (٩٧٦ ـ ٩٩٦)، هو إبن المعز وخلفه. تابع سياسة والده. في عهده «كانت الخلافة الفاطمية القوة الاسلامية الرئيسية في الشرق. وإستعادت الأساطيل البيزنطية تفوقها في المتوسط الشرقي لكنها لم تنجح أبداً في تأمين سيطرة الملك البيزنطي على الساحل السوري بحيث كانت سيطرته تتوقف في انطاكيا. . . فيما قبل حمدانيو حلب السيادة الفاطمية وزال القرامطة. وفي العام ٩٦٩ نظم الحج بحماية القوات الفاطمية مما جعل الخليفة الفاطمي يستحق بالفعل لقب خادم الحرمين الشريفين وهو أحد أعظم القاب الخلافة»[١٤].

### و ـ نصر على أفتكين والقرامطة (٩٧٨)

وفي العام ٩٧٦ حاول العزيز استعادة سورية من أفتكين الذي استتجد بقرامطة الجزيرة العربية. فحضر القائد العجوز جوهر على رأس جيش فاطمي قوي الى مشارف دمشق لكن ما أن رأى تعزيزات القرامطة حتى إنكفأ حتى أشقلون.

عندها خرج العزيز من القاهرة على رأس جيش فاطمي قوي ليواجه القوات المعادية في الرملة حيث نشبت معركة ضارية بين الجانبين انتهت بهزيمة افتكين ووقوعه في الأسر (٩٧٨) وإعادة احتلال دمشق. بيد أن العزيز، وقد أنهكه نصره، فإنه ضمن مغادرة القرامطة لقاء جزية سنوية تعهد بدفعها اليهم.

### ز ـ الحمدانيون والبيزنطيون ضد الفاطميين في شمال سورية (٩٨٣ ـ ٩٩٥)

وشجع الفاطميون بكجور، الضابط الحمداني الأمر في حمص، على احتلال حلب التي كان أميرها الحمداني التابع للقاهرة يحتفظ بعلاقات ودية مع بغداد وبيزنطية. لكن بكجور، وبعدما هزم عند أبواب حلب على يد القوات اليونانية التي لاحقته حتى مقر قيادته في حمص، حصل من القاهرة على تعويض له هو منصب حاكم دمشق (٩٨٣) الذي شغر منذ هزيمة أفتكين.

وفي العام ٩٩٣ مشى جيش فاطمي من جديد ضد أمير حلب الحمداني، التابع المتردد، الذي كان مستمراً في الاحتفاظ بعلاقات صداقة مع بيزنطية وبغداد. فحاصر الجيش الفاطمي حلب اكثر من سنة لكن اليونان

14 Gaudefroy-Demombynes, *op. cit.*, p. 440, 441.

أنجدوها وطاردوا فلول الفاطميين المتقهقرين ودمروا سورية الشمالية وعادوا الى انطاكيا (٩٩٥).

### ح ـ تساهل العزيز

تحت حكم العزيز احتل المسيحيون واليهود مناصب عليا في حكم الامبراطورية وادارتها. وكان يهودي هو إبن كليس، الذي اعتنق الاسلام، قد شغل منصب وزير من العام ٩٧٩ الى حين وفاته العام ٩٩١. «كان إسلامه في الظاهر لا غبار عليه كما أن عملية اعتناقه الإسلام التي جرت وسط دعاية كبيرة كانت تفرض عليه ان يبدي تقوى كبيرة ظاهرة. وهكذا فإنه عيّن العام ٩٨٨ في جامع الأزهر خمسة وثلاثين فقيهاً مكلفين بإلقاء المحاضرات: فيكون معهد التعليم الإسلامي الكبير مديناً بقيامه الى اسرائيلي سابق. وهناك معتنق آخر للدين الإسلامي هو القائد الفضل بن صالح الذي حارب طويلاً في سورية. لكن الوزير إبن كليس كان يعرف أيضاً كيف يستخدم أبناء دينه السابق من غير ان يلزمهم اعتناق الإسلام بدليل أن إسحق بن منسى، هو يهودي يبدو أنه نال منصب الإدارة المالية في سورية في حين كان مسيحي هو عيسى إبن نسطور يشغل ذلك المنصب نفسه في مصر»[١٥].

## ٣ ـ عهد الخليفة الحاكم (٩٩٦ ـ ١٠٢١)

كانت الأمبراطورية الفاطمية في عزها عندما توفي العزيز (٩٩٦) تاركاً مع الأسف خلفاً له ولداً هو أبو علي المنصور الذي اتخذ لنفسه إسم: الحاكم بأمر الله. وقد أصبح هذا الحاكم، شبه المجنون (٩٩٦ ـ ١٠٢١)، خليفة وهو بعد لم يتجاوز الأحد عشر عاماً وتحت وصاية خصي سلافوني يدعى برجوان كان قد عينه الخليفة العزيز.

### أ ـ زوال قوة الحرس ـ البربر (٩٩٧)

ومنذ وصول الحاكم بأمره تعالى الى السلطة فرض بربر قبيلة كتامة على الخليفة بأن يعين أحدهم، وهو حسن بن عمار وكان قائد جيش شجاعاً وإدارياً بارعاً، في منصب وزير (٩٩٦) فاستجاب الى طلبهم. وما أن ولي هذا الوزير مهامه حتى وزع على أبناء قبيلته من البربر أهم مراكز الحكم. ولما شعر الموظفون والضباط الأتراك العاملون في مصر بأنهم معرضون للإضطهاد، لجأوا

15 Wiet, *op. cit.*, p. 194.

الى سورية عند أحد مواطنيهم المدعو منجوتكين الحاكم الفاطمي في دمشق.

وبعدما نجح برجوان في شق صف زعماء قبائل البربر لجأ الى التحالف مع التركي منجوتكين الذي والاه أيضاً السوريون المعادون للبربر. وقامت فتنة في القاهرة خلعت إبن عمار من منصبه وحل محله برجوان في السلطة (٩٩٧). وكان سقوط إبن عمار نذيراً بانتهاء قوة البربر في مصر وسورية.

### ب ـ البيزنطيون يدمرون سورية (٩٩٩).

وأفادت المدن السورية من هذه الأحداث لتسارع الى طرد حكامها الفاطميين، وقد تلقت بعض تلك المدن كصور دعماً من الإغريق. ونجح حاكم دمشق الجديد في إعادة الأمن بعدما صفّى من غير رحمة العناصر المشاغبة. ثم مشى ضد اليونان ونجح في ردهم حتى أسوار أنطاكيا. لكن هؤلاء عاودوا الكرة فإجتاحوا سورية وخربوها (٩٩٩) وإحتلوا حمص وبعلبك وأعملوا بهما سلباً ونزلوا نحو الساحل محاولين عبثاً محاصرة طرابلس ثم عادوا أخيراً الى إنطاكيا حاملين معهم غنائم وفيرة وآخذين معهم العديد من الأسرى (٩٩٩). وبعد هذه الغارة أرسل الأمبراطور البيزنطي بازيلوس موفدين من قبله الى القاهرة فعقدوا هدنة لفترة عشر سنوات مع الحكم الفاطمي. وقد تم هذا الاتفاق «بفضل وساطة اوروستوس بطريرك أورشليم وخال الخليفة الحاكم» (ويت).

### ج ـ شخصية الحاكم

كان الحاكم بأمره شخصية وقورة «تلمع عيناه كعيني الأسد» وكان «سيداً من نوع فريد في الشرق بل وخارجه أيضاً. وكان عامر الإيمان وقليل الاهتمام، على ما يقال، بمباهج الحريم،وهو يظهر كإنسان لجمت حياته الداخلية غرائز الملذات لديه. إن الأوامر الصارمة التي فرضها لمنع تعاطي المسكر وإلزام النساء بلباس محتشم،كلها أمور تمليها جهوده لبلوغ الكمال الديني والخلقي من أجل تحقيق نصر الشيعية على السنية المتراخية والتي لم تحافظ مطلقاً على صفاء المجموعة الإسلامية. كما أنه أعاد العمل بالقوانين القديمة ضد اليهود والمسيحيين. بيد أن الحاكم، وبرغم ذلك، أبقى على المسيحيين في الوظائف الأساسية في الدولة، ربما للحاجة اليهم في تلك الوظائف وربما أيضاً لأن سيد الإسماعيليين هو فوق كل القواعد والمنطق»[١٦].

16 Gaudefroy-Demombynes, *op. cit.*, p. 441, 442.

### د ـ جنون الحاكم وصرعاته

وبعد أربع سنوات على تنصيبه فإن الحاكم، الذي كان له يومها خمس عشرة سنة، إستدعى اليه ذات مساء وزيره برجوان، الذي كانت سلطته قد بدأت تزعجه وأمر بقتله (١٠٠٠). ولما ظن الشعب والجيش ان البربر فعلوا ذلك إنتقاماً فإنهم أحاطوا بالقصر الملكي وراحوا يطالبون بالثأر. وقد أسهمت هذه التظاهرة، التي أخافت الخليفة، في فقدان رشده. وبدءاً من ذلك الحين فإن الحاكم الذي تخلص لسوء حظ مصر من وزير قوي ومخلص، إستسلم لغرابات وأعمال جنونية. فأصدر على الفور سلسلة من الإجراءات التي يفوق بعضها جنون البعض الآخر وراح يعمل على تطبيقها بحدة بالغة، فأية هفوات كبيرة أو صغيرة يعاقب عليها بالموت. من ذلك مثلاً أنه سد بالحجارة مداخل حمام دخلت اليه بعض النسوة للاغتسال برغم أوامر منع الخروج.

«وأصدر أوامر قضت بمنع فتح الأسواق إلا ليلاً وإبقائها مقفلة طيلة النهار ثم أصدر بعدها بقليل أوامر معاكسة: إذ منع الناس من الخروج من بيوتهم بعد مغيب الشمس. ومنعت النساء من مبارحة منازلهن. وللتأكد من التزامهن بهذا التدبير فقد منع الإسكافيين من صنع أحذية لهن...

وفي المرحلة الأولى من حكمه لاحق الحاكم بلا هوادة اليهود والمسيحيين وهدم الكنائس والكنُس في جميع أنحاء أمبراطوريته. وأما في المرحلة الثانية فاعترف لرعاياه بحق اعتناق أي دين يشاؤونه بل وسمح للكفرة الذين اعتنقوا الإسلام بالعودة الى دينهم السابق وهذا جحود يعاقب عليه الشرع الإسلامي بالموت»[١٧].

وبدافع التعصب الشيعي سمح بكتابة مناشير تذم الخلفاء الأولين وبعض صحابة الرسول ﷺ وبخاصة اولئك الذين يكرههم الشيعة.

### هـ ـ إضطهادات ضد المسيحيين واليهود

وبدءاً من العام ١٠٠٨ بدأ كره الحاكم لليهود وبخاصة للمسيحيين يظهر. فأمر بمصادرة أموال الكنائس والكنُس لصالح بيت المال كما أمر بنهب وتدمير آلاف عديدة من المباني الدينية في مصر وسورية.

17 Huart, *op. cit.*, I p. 345, 346.

وفي الوقت نفسه أمر بملاحقة رجال الدين المسيحيين في كل مكان وبتطبيق القانون الذي يلزم المسيحيين واليهود بارتداء ألبسة مميزة تطبيقاً بالغ الشدة، كما أمر بمنع أي تعامل تجاري معهم.

«ومن سخرية القدر المؤسفة أن الحاكم هذا كان ابن امرأة مسيحية وكان خاله الأول هو أوروستوس بطريرك أورشليم وخاله الثاني أرسانيوس بطريرك الاسكندرية الملكي: وان هذا الأخير أعدم بأمر من الحاكم»[18].

### و ـ تدمير القبر المقدس في أورشليم (١٠٠٩)

«وأما الحادث الأكثر خطورة والذي كان له وقع على المستوى العالمي أشد من إضطهاد مسيحيي مصر، فكان تدمير القبر المقدس، والذي ارتكب ببرودة أعصاب... وكان أحد العوامل التي روجت في الغرب لقيام الحملات الصليبية... وإن أحد المظاهر الأكثر شناعة لهذا العمل التخريبي أن مدير الديوان ـ (الذي تسلم الأمر بالكتابة الى والي الرملة ليتوجه الى القبر المقدس ويدمره) ـ كان مسيحياً وهو أبو منصور بشر، إبن ساويروس. وفضلاً عن ذلك فإن الوزير منصور بن عبدون كان مسيحياً هو الآخر. ونحن لا نعرف ما حل بالأول لكن الثاني لم ينجُ من حكم عليه بالإعدام العام ١٠١١.

ولنكون منصفين لا بد من أن ننظر الى الأمور، من وجهة النظر المسلمة، فالقبر المقدس كان مركز حج للمسيحيين الأجانب. وفي الواقع كان السوريون والمصريون يعرفون من هؤلاء المسيحيين الأجانب بوجه خاص جيرانهم اليونان المزعجين. كما أن السوريين، ومنذ نحو خمسين عاماً، عانوا الأمرين من هجومات هؤلاء البيزنطيين عليهم... فمن الأكيد إذن أن الجماهير المسلمة كانت في حال هياج دائم ضدهم إن صح القول»[19].

### ز ـ ألوهية الحاكم

وحوالي العام ١٠١٥ سمح الحاكم بإعادة بناء الكنائس ورد إليها ما كان قد نهب منها. وهذا التسامح المفاجىء تزامن مع ولادة فكرة متسلطة جديدة لدى هذا الخليفة: مفادها أن الله تجسد فيه. فراح يستغل العقيدة الشيعية الفاطمية ـ الإسماعيلية المتطرفة، وبخاصة الإيرانية، الى أبعد حدود المنطق

18 Wiet, *op. cit.*, p. 206.

19 Wiet, *op. cit.*, *p. 206, 208.*

والتي ترى في الملك ذي المحتد الشرعي تجسداً للإله. وراح سليل فاطمة هذا وخلف الفراعنة ـ الآلهة أو أبناء الآلهة يدّعي الألوهة.

وفي هذا الوقت، كما رأينا، جاء مرسلان من أصل فارسي ومن فارس هما الدرزي وحمزة وراحا يعلمان الناس بأن الحاكم هو خالق الكون (١٠٢٠). وقد أثارت هذه العقيدة الجديدة استنكار شعب القاهرة فرد عليها بتظاهرات عنيفة دامت ثلاثة أيام مما اضطر الخليفة ـ الإله للتخلي عن الدرزي الذي لجأ الى لبنان ثم تبعه اليه بعد ذلك بقليل حمزة. وتابع الدرزي في لبنان تبشيره بعقيدته وأسس دين الدروز وطائفته.

### ح ـ وفاة الحاكم بطريقة غامضة (١٠٢١)

لقد بقي موت الحاكم الذي اختفى العام ١٠٢١ لغزاً لأسباب سياسية ودينية معاً. ويبدو أنه كان ضحية مؤامرة دبرها ضده كبراء بلاطه حيث اغتيل الخليفة بتحريض منهم وهو يقوم بنزهة على هضبة المقطم أمام أبواب القاهرة. ويتهم بعض المؤرخين ست الملك، شقيقة الخليفة بالضلوع في هذه المكيدة. ولم يعثر على جثة الحاكم إطلاقاً. إنما عثر على ثيابه وهي تحمل آثار طعنات خنجر.

أما المؤمنون به فيعتقدون أن الحاكم الذي زهد من العالم توارى وحسب عن أنظار الناس منعزلاً في وحدة لا يبلغها أحد، فصار إماماً مختفياً، لكنه ما يزال حياً وسوف يعاود الظهور عندما تحين الساعة.

## ٤ ـ انحطاط الفاطميين

### أ ـ حكم الخليفة الزاهر (١٠٢١ ـ ١٠٣٦)

«وبعد حكم الحاكم الأسطوري أمضت الخلافة الفاطمية قرناً ونصف القرن من الحياة البائسة». فبعد أربعين يوماً على اختفاء الخليفة بطريقة غامضة عمدت أخته ست الملك الى إعلان الزاهر (١٠٢١ ـ ١٠٣٦) ابن الحاكم خليفة. ومع أن الخليفة الجديد كان قد بلغ ستة عشر عاماً إلا أنّ عمته التي أشرفت على تربيته في الحريم تولت وصاية الدولة بنفسها حيث أظهرت صفات حقيقية كملكة.

وفي ردة فعل على نظام الحاكم المستبد، الذي كان اختفاؤه موضع تهليل فائق في أوساط الشعب المصري، طورد المبشرون بألوهيته. ونال المسيحيون

مجدداً حرية العبادة وسمح لهم بإعادة بناء كنائسهم المهدمة. وأما من هرب منهم الى خارج مصر فسمح لهم بالعودة اليها. ومن أنكر دينه منهم تحت الضغط والإكراه أمكنه استعادة دينه السابق. وأخيراً فإن الموانع التي فرضها الحاكم على خروج النساء من بيوتهن وبيع مأكولات ومشروبات معينة فألغيت.

وإثر وفاة ست الملك فإن زاهراً، الذي كان قد بلغ العشرين من عمره، تسلم السلطة وواجهته صعاب كبيرة. فمنذ العام ١٠٢٣ وفي العام ١٠٢٤ سادت مصر مجاعة رهيبة تسبب بها نقص منسوب مياه النيل مما أدى الى وفيات كثيرة في البلاد. وفضلاً عن ذلك فإن المشاكل السورية التي أخذت تتعقد طرحت على الخليفة الشاب مسائل يتعذر حلها. وفي العام ١٠٢٤ قام صالح بن مرداس زعيم العرب الكلابية في المنطقة باحتلال حلب. كما سعى زعماء عرب آخرون في منطقتي دمشق وفلسطين الى استعادة استقلالهم.

وفي العام ١٠٢٧ فإن الخليفة الزاهر، الذي لم تكن تستهويه أبداً شؤون الدولة، ترك السلطة لوزيره أحمد جرجرائي الذي سيقوم، بمساعدة ثلاثة أشخاص آخرين، بإدارة مقدرات الأمبراطورية. وأناط الوزير الجديد حكم دمشق بضابط تركي هو ديزبري، وكان رقيقاً سابقاً أعتق، فسحق العرب المتمردين في جوار بحيرة طبريا ووطد سيادة الفاطميين في فلسطين وسورية الوسطى (١٠٢٩). وأما منطقة حلب فظلت في أيدى المرداسية.

وفي عهد الزاهر «عادت الدعوة الشيعية تأخذ مجراها السابق؛ وبما أن أي طرح ديني هو بمثابة عقيدة سياسية لذا كان لا بد من استعادة سيطرتها على الجماهير. . . فطرد من مصر العلماء السنة ومعظمهم من المالكيين واستأنف رسل الدولة دعوتهم: موزعين مكافآت مالية لكل من يجلي في معرفة تعليم دين الدولة الرسمي»[٢٠].

وتوفي الخليفة الزاهر العام ١٠٣٦ وله من العمر اثنان وثلاثون عاماً بعدما فتك به وباء الطاعون.

### ب ـ ارتقاء الخليفة المستنصر العرش

المستنصر (١٠٣٦ ـ ١٠٩٤) خلف الزاهر وهو بعد ولد في السابعة من

20 *Wiet, op. cit.*, p. 218.

عمره وكان حكمه أطول حكم في التاريخ الاسلامي. واحتفظ الوزير جرجرائي بالمهام التي كان يشغلها منذ ما يقارب العشر سنوات. لكن أم هذا الخليفة كانت تفرض نوعاً من الوصاية عليه، وقد كانت امة زنجية أعتقت إثر زواج الخليفة السابق منها. وقد زادت الملكة ـ الأم عدد قوات الجيش من العرق الأسود وعززت من نفوذ هذا العرق وعينت مستشاراً خاصاً لها هو رب عمل سابق لها وهو اليهودي أبو سعد الذي أدخلته الى البلاط. هكذا وبعد وصاية ست الملك فإن مصر عرفت وصاية امرأة جديدة.

«ولعل هذه السلطة الرسمية التي مارستها النساء والتي لم تكن معهودة عند العباسيين ناجمة عن أثر بربري أو مصري. وكان من نتائجها تعظيم شأن الوزراء الذين حالفهم الحظ وزيادة سلطة الحرس من المرتزقة الترك والزنج والذين أغرقت منازعاتهم مصر في حمام من الدماء. وقد أحاط المستنصر نفسه بخمسين ألفاً من الزنوج»[٢١].

### ج ـ تطبيع العلاقات مع بيزنطية (١٠٣٨) وإعادة بناء القبر المقدس

إن المسألة الأولى التي كان على حكم المستنصر حلها كانت الاهتمام بتسوية العلاقات مع الأمبراطورية البيزنطية. وكانت مفاوضات قد جرت بهذا الشأن منذ العام ١٠٢٣، بوساطة بطريرك أورشليم لكنها لم تكن قد أدت الى نتيجة بعد. وعلى حدود الأمبراطوريتين، في جبال النصيرية شرق اللاذقية استمر الجانبان بإقامة التحصينات. وفي العام ١٠٣٠ غزا دوق أنطاكيا سورية الشمالية لكنه ما أن وصل الى مشارف حلب حتى تصدى له أمير تلك المدينة المرداسي وهزمه. وبرغم أن هذا الأمير المرداسي كان مستقلاً عن الفاطميين إلا أن نصره قوبل بابتهاج في القاهرة لأن «الاسلام كان صلة وصل» تجمع بين مرداسيي حلب وفاطميي مصر.

لكن الهزيمة التي تكبدها دوق إنطاكيا في حلب عوضها اليونان بشكل واسع في طرابلس حين ساعدوا حاكم هذه المدينة على رفع النير الفاطمي عن المدينة (١٠٣٢). وقد حدا هذا الخطر الكبير بحكم القاهرة الى المسارعة بطلب التفاوض لعقد هدنة حيث كان من المفترض أن يجتمع مندوبون عن الأمبراطوريتين في طرطوس على الحدود البيزنطية ـ الفاطمية. بيد أن هذه المفاوضات لم تمنع قائد

21 Gaudefroy-Demombynes, *op. cit.*, p. 443, 444.

أنطاكيا اليوناني من الاستيلاء على موقع محصن في منطقة جبال النصيرية وإلحاق هزائم عدة بالفرق الفاطمية التي حاولت وقف تقدمه. وأمام هذا التصعيد في الوضع أمر الخليفة الزاهر الفاطمي تلاوة نداء في كل مساجد أمبراطوريته يدعو الى الجهاد المقدس. ولكن وفي الوقت نفسه تم إرسال موفدين من قبل الخليفة الى القسطنطينية حيث أطلعهم الملك البيزنطي على شروطه للصلح. واعتبرت شروط هذا الأمبراطور غير مقبولة من الجانب الفاطمي فعلقت المفاوضات.

ثم استؤنفت هذه المفاوضات في عهد المستنصر بين الفاطميين والبيزنطيين وانتهت الى توقيع اتفاقية سلام بين الطرفين العام ١٠٣٨. وإن الأمبراطور البيزنطي الذي سلّم المسلمين ٥٠٠٠ أسير حرب نال مقابل ذلك السماح بإعادة بناء كنيسة القيامة في القدس. وأرسل الأمبراطور مهندسين يونانيين الى فلسطين وانفقت مبالغ طائلة من المال قدّمها الأمبراطور لإنجاز هذا المشروع، فأعيد بناء الكنيسة بناءً رائعاً.

**د ـ الشؤون السورية. إقصاء ديزبري (١٠٤١).**

أتاح السلام المعقود مع اليونان للفاطميين الاهتمام بالشؤون السورية. ونجح القائد التركي ديزبري، حاكم دمشق منذ العام ١٠٢٧، في تصفية المسألة المرداسية باستيلائه على حلب (١٠٣٨). وبفضل عزيمة هذا القائد البارز ونبوغه السياسي وروح العدالة المتأصلة في شخصه نجح في إعادة السيادة الفاطمية الى شمال سورية ووضع حداً لأعمال النهب وأجبر «سكان سورية المشاغبين على الرضوخ». لكن للأسف اتهم هذا الخادم الأمين للسلالة والأمبراطورية الفاطميتين بالخيانة من قبل وزيره الغيور بسبب انتصاراته.

«كان ديزبري يعطي البلاط الفاطمي انطباعاً بأنه حاكم. وقد أقلقت انتصاراته ضد اليونان أو الأمراء المسلمين رجال القاهرة السياسيين. . . وقد ارتكب الوزير الفاطمي علي الجرجرائي خطأ كبيراً بتحريض الجيش ضد الرجل الوحيد الذي عرف كيف يوطد السيادة الفاطمية في سورية. عنده اضطر هذا القائد التعس الى الفرار من دمشق وتابع سيره بلا هدف حتى حلب إذ رفض الجنود المعسكرون في بعلبك وحماة استقباله، وتوفي في هذه

المدينة بعد فترة من فراره (١٠٤٢)، إلا أنه نجا على الأرجح من العزل والسجن»[٢٢].

إن سقوط ديزبري، الذي يبدو أنه أظهر دائماً أمانة تامة برغم أن أقصى ما كان يؤخذ عليه هو جمعه ثروات طائلة، أدى الى إضعاف قوة الفاطميين في سورية. لذا ما عتم المرداسيون أن عاودوا الاستيلاء على حلب وأعلن عرب فلسطين استقلالهم.

ولمواجهة نفوذ المرداسيين في حلب فإن القاهرة عينت العام ١٠٤٢ ناصر الدولة، وهو سليل أمراء الموصل الحمدانيين وأعداء المرداسيين، حاكماً على دمشق خلفاً لديزبري. ثم ندمت الدولة الفاطمية على قرارها الأخرق حيال ما اتخذته بحق ديزبري وحاولت إعادة الاعتبار الى ذكرى هذا الجندي العظيم بنقل رفاته الى أورشليم (١٠٥٦) حيث نظمت تظاهرة مهيبة في هذه المناسبة.

### هـ ـ أفريقيا الشمالية تتحرر من الفاطميين (١٠٤٤)

وفيما كانت تلك الأحداث تدور في سورية كشف البربر الزيريديون، الذين أقامهم الفاطميون في تونس كأمراء تابعين لهم في أفريقيا والذين أظهروا مراراً مشاعر معادية نحو سادتهم، عن وجههم الحقيقي فقطع أميرهم الزيريدي معز العلاقة مع القاهرة وحصل، بناء على طلبه، من خليفة بغداد براءة تولي السلطة (١٠٤٤). وفي محاولة لإبراز مشاعرهم الطيبة نحو عاهلهم الجديد خليفة بغداد، وقطعاً لأي علاقة لهم مع خليفة القاهرة الفاطمي، منع الأمراء الزيريديون اعتناق المذهب الشيعي في دولتهم بل إنهم ذهبوا الى حد ترك الشيعة يقتلون في أفريقيا الشمالية. ناهيك بأنهم نصبوا أنفسهم مكان الفاطميين كعاهلين على طرابلس الغرب وصقلية.

### و ـ غزو بني هلال أفريقيا الشمالية (١٠٥٢)

وإثر وفاة الوزير الجرجرائي أمرت الملكة ـ الأم بتعيين الوزير يازوري (١٠٥٠ ـ ١٠٥٨) وهو من الرملة (فلسطين) وقد جمع بين مهام كبير القضاة والوزير. إن يازوري، وقد اطمأن من ناحية سورية حيث بدا الهدوء سائداً فيها، انصرف الى تكريس نشاطه لمسألة الزيريديين في أفريقيا الشمالية.

وفي سبيل الثأر من هؤلاء الزيريديين فإن يازوري، الذي كان عاجزاً

22 Wiet, *op. cit.*, p. 224.

عن إطلاق حملة عسكرية ناجحة في أفريقيا الشمالية، خطر له إطلاق قبائل بني هلال وبني سُليم وهي قبائل عربية، مشاغبة وتطمع بالغنائم. وكانت قد أسهمت في إرساء سيادة الفاطميين في مصر. وقد سبق لهذه القبائل النهابة أن أقامت أولاً في الدلتا ثم طردت منها على عهد الخليفة العزيز (٩٧٦ ـ ٩٩٦) الى مصر العليا حيث كانت تتسبب في إثارة مشاكل مستمرة وتهدد، بفضل علاقاتها بقرامطة الجزيرة العربية، وجود الخلافة الفاطمية بالذات.

وفي العام ١٠٥٢ احتلت جماعات من تلك القبائل مقاطعة برقة في ليبيا ونهبت مدنها. وسرعان ما انضم الى هؤلاء البدو مجموعات أخرى فانقضوا على كل أفريقيا الشمالية «كسحابة الجراد» مخربين وناهبين كل ما كان يقع في طريقهم ومدمرين الازدهار والحضارة في تلك المناطق تدميراً كاملاً. فانحصر وجود الزيريديين في عاصمتهم المهدية في حين شكلت المدن الأخرى مراكز مستقلة.

## ٥ ـ سياسة الفاطميين المغامرة في العراق
## نشوء الهيمنة التركية ـ السلجوقية في بغداد (١٠٥٥).

وبعد إرواء غليلهم بالثأر من الزيريديين أراد الفاطميون التعويض عن خسارة ممتلكاتهم في الغرب بمد نفوذهم الى الشرق. وعندما أخفقوا في المعارك البحرية والبرية مع البيزنطيين (١٠٥٦) ثأروا بمصادرة ثروات كنيسة القبر المقدس التي كان بناؤها قد أنجز لتوه ووجهوا مطامعهم ناحية الفرات.

وكانت أحداث أخيرة قد وقعت في بغداد فولدت لدى حكام القاهرة أملاً بالتوغل داخل أراضي العباسيين والاستيلاء على عاصمتهم. «فما كان منهم إلا أن إندفعوا بخفة وراء هذا المخطط الخيالي بلا تنظيم منهجي وغير عابئين إذا كان ذلك ممكناً» (وايت).

وفي هذه المرة أيضاً، وككل المرات السابقة التي حاول فيها أسياد النيل المجازفة بدخول وادي الرافدين، كان على الفاطميين أن يدفعوا غالياً ثمن أوهامهم المابينهرية.

### أ ـ فوضى في العراق

وحوالي المرحلة التي نحن بصددها كانت بغداد ومنذ بعض الوقت تعاني من فوضى رهيبة. فسلاطين بني بويه الفرس، وهم الأسياد الزمنيون في

الأمبراطورية العباسية وبعد مرور قرن من حكمهم، أصبحوا أضعف من الخليفة السيد الروحي الذين هم حماته. وكانت المنافسات الدينية بين السنة والشيعة تظهر بشكل حرائق وأعمال نهب في العاصمة. في حين أن «تمردات المرتزقة الترك علمت السكان بأنه يكفي الاستيلاء على الشارع لإذعان أي خليفة أو وزير» (ويت). وكان الحكم في القاهرة يتابع عن كثب تطور تلك الأحداث.

### ب ـ الأتراك السلاجقة يستولون على بغداد
### سقوط سلالة السلاطين البويهيين (١٠٥٥)

وفي العام ١٠٥٤ وفي أيام حكم الخليفة العباسي القائم (١٠٣١ ـ ١٠٧٥) قام الحرس الترك بنهب بغداد كما عمد الأكراد والعرب الى نهب ضاحيتها، وأخيراً بدأ الأتراك السلاجقة، الخارجون حديثاً من آسيا الوسطى، بالدخول الى ما بين النهرين.

ولما عجز وزير الخليفة القائم عن احتواء تلك الموجات أجرى اتصالات بطغرل بك قائد الأتراك السلاجقة، والذي كانت زمره قد غطت خراسان وفارس وآسيا الصغرى، طالباً حماية الخليفة وتحريره من بني بويه الإيرانيين.

وفي العام ١٠٥٥ دخل طغرل بك بجنده الى بغداد من غير مقاومة تذكر فاستقبل استقبالاً رسمياً جداً وأمر الخليفة القائم بأن يتم الدعاء للسيد الجديد خلال الخطبة في المساجد. وأما السلطان البويهي فسجن ومات بعد ثلاث سنوات في إحدى القلاع.

### ج ـ مغامرة بصاصيري تدعمها القاهرة ثم تتخلى عنها

وقد حاول أرسلان بصاصيري، وهو ضابط تركي يتولى أمرة بغداد، أن يقاوم بمفرده القدر لكن مقاومته ذهبت سدى. وبالاتفاق مع العناصر الشيعية في العراق المؤيدين للفاطميين أنشأ نواة مقاومة لكنه أوغر عليه في المقابل عداوة جنود الحرس الأتراك الموالين للسلاجقة. ولما دخل طغرل بك الى بغداد هرب بصاصيري نحو الشمال وراح من هناك يعقد صلات أكثر إيجابية مع بلاط القاهرة. وبفضل دعم مالي كبير تلقاه من مصر نجح بصاصيري في بذر الشقاق بين السلاجقة عندما دفع أحد أشقاء طغرل بك، وهو حاكم بلاد ما بين النهرين الشمالية الى التمرد. وفي حين شُغل طغرل بك بملاحقة أخيه المتمرد الذي لجأ الى فارس الشمالية أفاد بصاصيري من غياب السيد الجديد

ودخل الى بغداد حيث دعا خطباء المساجد للمناداة خلال الخطبة باسم خليفة القاهرة. وأكثر من ذلك أكره الخليفة العباسي على توقيع اعتراف يقر فيه بأن الخلافة هي حق حصري بفاطميي مصر من سلالات فاطمة بنت الرسولﷺ في حين أن وزيره الموالي للسلاجقة أعدم وأرسل قسم من كنوز الخلافة إلى القاهرة (١٠٥٨).

لكن بلاط مصر، الذي كان قد شجع مغامرة بصاصيري ودعمها، بدا فجأة وكأنه غير مبال بها. وفي وقت كان على وشك ان يحالفه النجاح، راح كتّاب مصريون يتهمون الوزير المصري يازوري بأنه عقد علاقات سرية مع القائد السلجوقي، فعزل يازوري وبعد التحقق من أوراقه ثبتت عليه تلك الاتهامات مما أدى الى الحكم عليه بالموت وقد نُفذ (١٠٥٨). وفي الواقع فما قام به يازوري هو تغيير مفاجىء في الرأي، يعود الى نظرة أكثر موضوعية للوضع السياسي أكثر مما هو خيانة. فالوزير المصري أدرك في النهاية، أنه ونظراً لبُعد المسافة، فإن أي عمل حازم سيكون باهظ الكلفة ويصعب دعمه وان «ضم بضع قرى صغيرة للدولة أفضل من ضم مملكة على بعد مئات الأميال منها».

### د ـ نتائج التدخل الفاطمي في بغداد

«وكان الوزير المصري محقاً في رأيه. فمقدرات مصر لم تكن تسمح لها بدعم تمرد في بلاد ما بين النهرين ولو كان ذلك للحصول على منطقة نفوذ فيها. وقد أخطأ مستشارو المستنصر عندما أغفلوا أن مصر عليها الاكتفاء بسياسة متوسطية مدعومة بامتلاكها الصلب لسورية. وهذا الخطأ الذي يعود الى حرارة الايمان بالدعوة الشيعية أدى الى هدر أموال مصرية طائلة وجاءت النتائج تنسجم مع هذا المنطق...

وإن المناداة بالخليفة الفاطمي خلال خطبة المساجد في بغداد... ستثير صدمة في غاية الأهمية. فالسلاجقة ما كانوا ليرنوا بأبصارهم ناحية الغرب لولا تدخل القاهرة في بغداد... فيمكننا أذن القول إن هذا التصرف الأرعن من جانب البلاط الفاطمي سيدفع الدولة الجديدة المنافسة لتصبح خطيرة بسرعة حيال مصر»[٢٣].

23 Wiet, *op. cit.*, p. 236, 237.

### هـ ـ طغرل «ملك الفرس والعرب»

وبعدما هـزم طغرل بـك أخاه المتمـرد وقتله دخل بصحبـة الخليفة القـائم الى بغـداد التي هرب منهـا بصاصيـري وكل شيعـة المدينـة. وبعد ذلـك ببضعـة أيام قتل بصاصيري خلال معركة جرت في بـلاد ما بـين النهرين. وبعـدما جمـع طغـرل بـك (١٠٥٥ ـ ١٠٦٣) بـين يـديـه كـل مسؤوليـات السلطة الـزمنيـة، اعترف به الخليفـة القائم كسلطان أعـلى يحمل اللقبين الفخريـين «سيد الشـرق والغرب» و«ملك الفرس والعرب». وبعدمـا وضع طغـرل يده عـلى ممتلكات بني بويه أصبح يمارس سلطته على العراق وما بين النهرين.

### و ـ قيام الهيمنة التركية في الشرق

إن الأتراك السلاجقة، وأسوة بأسلافهم الآسيـويين العـديدين الـذين منذ الألف الرابع ق.م. (السومريـين) سادوا غـالباً وادي الـرافدين فهم وقـد جاؤوا حديثاً من آسيا الوسطى، سيرسخون إقامتهم الآن بقـوة في البلاد، لا كمـرتزقـة يعملون تحت إمـرة خلفاء بغـداد كالأتـراك الآخرين الـذين سبقوهم بـل كسادة حقيقيين لدولة ما بـين النهرين. إن هؤلاء المجتـاحين الجـدد، المعتنقين الإسـلام حديثاً، وقـد غطوا بـظلهم الخليفة العبـاسي الذي لن يكـون بعد ذلـك إلا ظل رئيس روحي، فـإنهم سيحلون محل العـرب والفرس المنهكـين وينصبون أنفسهم أبطال الإسلام وسيدفعون بحدوده حتى تصل الى مهـد الهلينية. وبـالفعل فـإنه بـدءاً من هذه المـرحلة بالـذات فإن سيـادة العرق التـركي ـ الآسيـوي ستـأخـذ بـالامتداد أكـثر فأكـثر نحو الغـرب وإن الـدور التـاريخي الكبـير الـذي سيلعبـه العنصر التركي في مصائر الشرق الأدنى سيشهد بدء تطوره ونموه.

«إن هذا الغزو التركي الثاني بعد الغزو الأول الذي حصل (٨٣٣) أيام حكم المعتصم، سيشكـل بالنسبـة الى سوريـة أولاً ثم بـالنسبـة الى مصـر ثـورة حقيقية في جميع الميادين الدينية والسياسية والعسكرية والفنية»[٢٤].

## ٦ ـ نهاية الدور السياسي للعالم العربي ـ الشرقي (١٠٥٥)

لقـد أشرنـا آنفاً الى ثـلاثة تـواريخ تمثـل تحولات تـاريخية كبيـرة في التطور التـاريخي للعـالم العـربي ـ الإسـلامي. ففي العـام ٦٦١ فـإن ارتقـاء الخلفـاء الأمويين العرش واستقرارهم في دمشق جعل سيادة العـرب السوريـين تحل محـل

24 Wiet, *op. cit.*, p. 237.

سيادة عرب وسط الجزيرة العربية وجنوبها. وفي العام ٧٥٠ حين استولى الخلفاء العباسيون على السلطة وأقاموا في بغداد عندها حلت السيادة العربية ـ الإيرانية محل سيادة العرب ـ السوريين. وفي العام ٩٤٥ استعادت السيادة الإيرانية في العراق بعد تدميرها على يد العرب ٦٤٢، مركزها السابق مع وصول سلاطين بني بويه الإيرانيين الى سدة الحكم في بغداد.

وأما العام ١٠٥٥ فيمثل أكثر من تحول كبير، لأنه يمثل في تاريخ العالم العربي ـ الإسلامي وفي تاريخ الشرق الأدنى مرحلة تطور جديدة وتغييراً جديداً. ذلك أن الأتراك السلاجقة، الذين سيحلون محل بني بويه الإيرانيين في بغداد، سيضعون حداً نهائياً للاستقلال المحتضر في العالم العربي ـ الشرقي والذي سيعيش على الهامش بعد ذلك التاريخ وحتى مطلع القرن العشرين تحت النير الغريب وعلى هامش التاريخ الكبير.